الكتابة العربيّة

من النقوش إلى الكتاب المخطوط

تأليف

صالح بن ابراهيم الحسن

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

ⓒ دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحسن، صالح بن إبراهيم.

الكتابة العربية من النقوش إلى الكتاب المخطوط. ـ الرياض.

٤٨٤ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٢-١٩-٦٧٧-٩٩٦٠

١ـ الخط العربي ـ التاريخ ٢ـ الكتابة العربية ـ التاريخ أ- العنوان

ديوي ٤١١,١٠٩ ٢٢/٢٩٢٥

رقم الإيداع ٢٢/٢٩٢٥

ردمك ٢-١٩-٦٧٧-٩٩٦٠

دار الفيصل الثقافية

ص. ب ٣ الرياض ١١٤١١

المملكة العربية السعودية

إدارة التسويق

ص. ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف ٤٦٥٢٢٥٥ / ٦٦١٣ ـ مباشر ٤٦٥٠٨٥٧ ـ ناسوخ ٤٦٥٩٩٩٣

بريد إلكتروني: sjameel@kff.com

(بسملة من كتابات ابن البواب البغدادي - أوائل القرن الخامس الهجري)

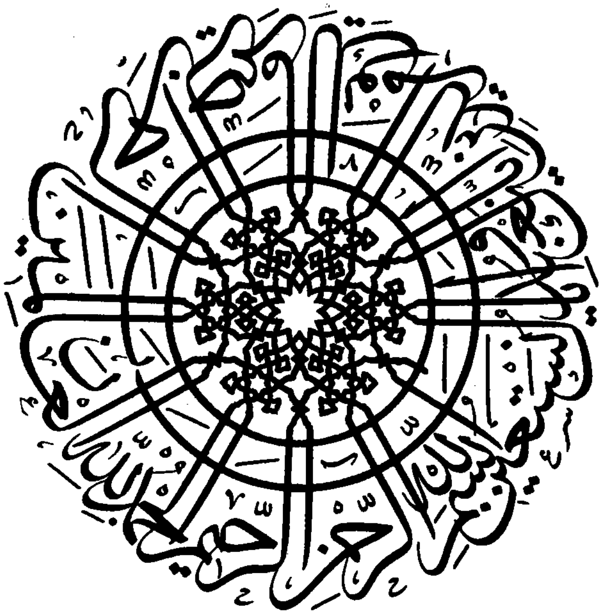

من خطوط حامد الآمدي (١٣٠٩هـ - ١٤٠٣هـ)

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن اللغات بمفهومها العام ميسم مهم للأمم، بل لا نغلو في الأمر حين نقول: إنها السمة الأساسية لكل أمة، فبها تمايز غيرها من الأمم، وتكون لها الشخصية المستقلة التي تصون لها ثقافتها وتجانسها، وتحفظ لها كيانها من أن يضطرب أو يزول.

والشعوب التي توصف بأنها من الأمم البائدة لم تخرج من الحياة لانقراض جنسها البشري، بل لأفول سمتها المميزة، وهي لغاتها..!

وقد ارتبطت لغات الشعوب المتحضرة منذ آماد موغلة في التاريخ بنظمها الكتابية، فاللغات المكتوبة هي التي استطاعت عبور التاريخ، أو على الأقل البقاء على ساحته مددًا أطول. ولهذه الأهمية فقد كونت اللغات وكتابتها صورة واحدة ذات وجهين متلازمين تلازمًا تامًا، لا ينفكان إلا بقوة قسرية متسلطة.

ونتيجة لهذا التلازم الحميم بين اللغات وكتابتها، حدث نوع من التآلف بينها، بحيث تتنازل اللغات عند كتابتها عن بعض أصواتها الشاذة أو المتطرفة، والكتابة بدورها تقدم إمكاناتها وأدواتها الرمزية لتمثيل تلك الأصوات اللغوية، بحيث تستطيع عزل الصوت وتمثيله برموز كتابية، تكون معبرة قدر الإمكانات الكتابية عن الكلمات المنطوقة.

وقد أكسب هذا التلازم، الكتابة ذاتها مكانة اللغة نفسها بين أهلها، وأصبحت حرمة اللغة وكتابتها من حرمة الإنسان، وإهانتها من إهانته.

ونتج من هذه المنظومة الإنسانية دخول اللغات ونظمها الكتابية معترك الصراع الدولي، فأصبحت النزاعات العسكرية والسياسية بين الأمم تكلل بحرب شرسة على اللغات وكتابتها بوصفها رموزًا ذات دلالات عميقة، ومؤثرة في الخصم. كما أنهما ـ أعني اللغة وكتابتها ـ تحويان سجلاً عميقًا وموسعًا لتراث الأمة وثقافتها اللذين تقومان عليهما. وعند الإخلال برمز التواصل بين

الأمم وميراثها الحضاري، يحدث انقطاع بين ماضيها وحاضرها، وهذا يؤدي إلى هزيمتها من داخلها، فتزهد في شخصيتها وكيانها المستقلين، ومن ثم تكون تابعة للمعتدي المحتل عن طيب خاطر.

ومن هذه الأهمية البالغة للغة وكتابتها كانت حروب الدول الاستعمارية عليها شرسة لا هوادة فيها، تبذل الكثير من المال والسلاح والعتاد؛ لزحزحة مستعمراتها عن لغاتها ونظمها الكتابية.

وإذا كانت هذه الأهمية البالغة للغات ونظمها الكتابية قانونًا إنسانيًا يسري على جميع الأمم والشعوب، فإنها بحق العرب ولغتهم وكتابتها أهم وأولى؛ وذلك لارتباطهم بمصادر التشريع السماوية (الكتاب والسنة) وهي مصادر نزلت باللغة العربية، وذادت عنها الأمة طوال خمسة عشر قرنًا على امتداد العالم الإسلامي بذخائر فكرية لا تحصى، مكتوبة باللغة العربية وبالحرف العربي. ومن هنا فإن مجرد التفكير في أي تغيير في بنيتها النحوية أو الصرفية أو الكتابية، يؤدي إلى زعزعتها، وفقد التواصل بين الأمة وتراثها وهويتها، وسيؤدي هذا إلى كارثة كبرى لا يستطيع العقل تصور مداها، أو التنبؤ بعواقبها.

وقد أدركت الأمة هذا الأمر، لهذا سفهت دعاوى إصلاح الكتابة، التي جاءت على لسان عبدالعزيز فهمي وأضرابه؛ لأنها رأتها دعاوى غير مدركة لطبيعة النظام الكتابي العربي، فهي مفروضة عليه من خارج بيئته اللغوية والكتابية. ومن ثم فإن القبول به سيؤدي حتمًا إلى تدمير النسق الكتابي العربي، وقطع الصلة بين حاضر الأمة وماضيها. وهو أمر لا يمكن القبول به؛ لأنها أمة ذات رسالة خالدة، كلفت بأمر سماوي بأن تكون داعية إلى الخير، قائمة بدين الله. وهذا أمر يستوجب منها الاتصال بمصادر التشريع السماوي لتبلغه إلى الناس كافة. وأن تكون هادية إلى الحق الإلهي لا منساقة أمام دعاة التبعية.

وعلى أثر ذلك نسيت هذه الدعوات ومزاعمها في الإصلاح. وقد أكد صحة مسلك الأمة علماء اللغات بمقولتهم: إنه ليس هناك نظام كتابي أصلح من نظام آخر، بل إن كل لغة لها نظامها الكتابي الخاص الذي يتواءم مع نظامها الصوتي والصرفي والنحوي.

وأثبتت الأيام بطلان دعاوى عدم ملاءمة الكتابة العربية لآلات الطباعة؛ نتيجة للتطور العلمي الهائل في تقنياتها. فقد أكدت عمليًا أن كل مشكلة كتابية لها تقنية علمية كفيلة بحلها، فكتبت لغات أعقد، تضم عددًا كبيرًا من الرموز الكتابية يفوق العربية بعشرات المرات. وعد الناس عبدالعزيز فهمي ومن سار على دربه تاريخًا مضى وانقضى، أولى به أن يركن في دائرة النسيان.

وجاء عصر الحاسوب، فإذا هو يحدث ثورة هائلة في مجال المعرفة ونقل المعلومات، ويعد بتقدم هائل في استعمال اللغات المطبوعة والمنطوقة من خلاله، فيعاود المنهزمون مرة أخرى إلى الولولة وشجب الحرف العربي واللغة العربية من جديد، بدعوى عدم تلاؤمها مع تقنيات الحاسوب والاتصالات الحديثة.

وتأتي كلمة المتخصصين من علماء اللغويات الحاسوبية حاسمة في هذا المجال، لتصفع وجوه المخذلين بالقول: «إنكم تجاهلتم الحقائق اللغوية والفنية، وإن النظرة العميقة المتأنية ستكشف لنا كثيرًا من الأمور التي تجعل من العربية موضوعًا مثيرًا وشائقًا للمعالجة الآلية بقدر تفوق اللغة الإنجليزية نفسها. وإن النظام الصوتي في العربية، والصلة الوثيقة بين كتابتها ونطقها عامل آخر يزيد من قابلية اللغة العربية للمعالجة الآلية بصفة عامة، وتمييزه آليًا بصفة خاصة»(١).

وتتكسر أصفاد اللغة الإنجليزية على الحاسب الآلي وتقنياته، لينفتح على الأبجديات الأخرى، وذلك حين تكتشف طرائق جديدة تقوم على تكوين أشكال الحروف بتتبع مسارات خطوطها، أي بمحاكاة مسار ريشة الخطاط اليدوية في الخط العربي. ويقرر العلم الحاسوبي الرياضي الذي لا يكابر ولا يجامل أن «التخلص من أسر اللغة الإنجليزية لا يحل فقط كثيرًا من المشكلات التي تواجه المعالجة الآلية للغات الأخرى، بل يضيف الكثير من المزايا إلى تطبيقات الإنجليزية ذاتها». وعلى أثر ذلك يناشد الدكتور نبيل علي عالم اللغويات الحاسوبية المطورين العرب قائلاً(٢): «أليس في هذا ما يوحي بأن استغلال

(١) د. نبيل علي: اللغة العربية والحاسوب، ص ١٧٣، ١٧٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٤١.

خصائص اللغة العربية خطًا وصوتًا وصرفًا ونحوًا، هو مدخل أساسي لحل مشكلات معالجتها آليًا، بل ربما أيضًا للمساهمة في حل بعض المشكلات التي تواجه بعض اللغات الأخرى».

ويتقدم الحاسوب في معالجة اللغة العربية، بل ويبدع المتخصصون المؤمنون بقدرات لغتهم وكتابتها في إنتاج خطوط عربية رائعة تقارب في جمالها وإحكامها خطوط الخطاطين. إلا أن المهزومين يأبون إلا البحث عن أمر ينتقصون به لغتهم وكتابتها، ويروجون لدعاوٍ يزعمون فيها الإصلاح. فتخرج علينا مجلة «أبل» في تشرين الثاني عام ١٩٩٣م بمقال يتضمن الزعم باختراع خط جديد، أسماه أصحابه الخط العربي المبسط، ويصفه المقال بأنه «يتيح لمسلمي العالم وغير العرب تعلم اللغة العربية بسرعة، ويفتح أفق الاستفادة الفورية من التكنولوجيا الغربية». أي أن المقال - على الرغم من وعوده البراقة - لا يزال يعيش على أحلام المنهزمين الأوائل الذي زعموا أن الخط العربي لا يلائم التقنيات الحديثة، والغريب أن هذا الخلف هم من أبناء الحاسب الذين يعرفون ما وصل إليه الخط العربي من تطور وتقدم هائل ضمن هذه التقنيات، بل هم من المطورين له، ولا أدري كيف سولت لهم أنفسهم القول بتلك المزاعم!!

وتتكشف حقيقة الأمر في هذه الدعوى عند إتمام قراءة المقال، فيتبين أن هذا الخط يمتاز بزعمهم باختصاره «الأشكال الأربعة للحرف العربي بشكل واحد، ويتيح إمكان الفصل بين الحروف العربية»(١) أو بمعنى آخر أن هذا الخط يهدم بنية الخط العربي وخصائصه الأصيلة التي تقوم على اتصال حروف الكلمة الواحدة حسب نظام خاص، ووجود حالات ثلاث للحرف حسب موقعه من الكلمة. بل يفصح أصحاب المقال عن هدفهم بالقول: إن خطهم يعمل على «تعويد العين العربية التي اعتادت قراءة الأشكال التقليدية على أشكال منفصلة. فهو يمكن استخدامه اليوم بشكل متصل فلا تتعدى صعوبة قراءته صعوبة التعود على أي خط جديد. وبعد فترة من الزمن يمكن فصل هذه الأشكال بعضها عن بعض، إذ إن العين قد اعتادت عليها» ومن هذا القول

(١) مجلة أبل: م٣ ع٢٦، ص ١٠.

الذي لا يحتاج إلى شرح أو إيضاح يتبين أن الأمر ليس معالجة مشكلات تقنية أو خطية، بل هو الأخذ بما هو غربي على أنه الأكمل والأوفى، فما دام الغرب يكتب بحروف منفصلة فلنكتب بحروف منفصلة، وما دامت أشكال حروفه لا تتغير حسب موقعها في الكلمة فيجب أن تكون كتابتنا كذلك. أما الحسابات اللغوية والصرفية العميقة، فلا مكان لها عند هؤلاء...!

وسقطت فكرة مجلة «أبل» كما سقطت أوهام سابقة من قبل، فلم نسمع عنها شيئًا بعد ذلك، على الرغم من إلحاح المجلة والقائمين عليها بضرورة مشاركة القراء في دعم مشروعهم. وتبع سقوط المشروع سقوط المجلة نفسها، فلم نرها بعد ذلك في الأسواق.

وهنا بدأ كثير من التساؤلات يدور في خاطري:

- هل ما زالت الكتابة العربية وصعوبتها أمرًا مستساغًا تلوكه الألسن المهزومة على الرغم من التقدم التقني الذي أثبت عكس مزاعمهم؟
- ألم يدرك أصحاب تلك الأصوات أن دعاة الانهزام قد اتجهوا إلى جوانب أخرى في حياتنا الثقافية والفكرية، لا يزالون يجدون لهم فيها موطئ قدم إلى حين، ومن ثم عليهم ترك الكتابة وشأنها فقد انكشفت دعواهم. إذ قدمت التقنيات الحديثة أساليب وطرائق فنية أثبتت اللغة العربية وكتابتها أن هذا هو ميدانها الذي تصول فيه وتجول، وسيكون لها قصب السبق فيه؟!
- ألم تدرك تلك الفئة أن الأمم عامة ترى كرامتها وإباءها في لغاتها وكتابتا، وأنها لا تتنازل عنها مهما علت سطوة الظالم والجائر. وإذا كان هذا هو حال أمم لا تمت بسبب إلى السماء، فكيف بأمة الإسلام وبينها وبين السماء وحي مسطر باللغة العربية وكتابتها، وبينها وبين الله عهد وميثاق على أن تكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأنّى لها ذلك إن هي تنازلت عن لغتها وكتابتها؟!
- ألم يدرك أصحاب الأصوات المخلصة أن أي سبب للتطوير - إن كان الأمر يحتاج إلى ذلك - يجب أن يولد من رحم الكتابة العربية نفسها، بحيث لا يخرج عن نسقها في التطور، وأن لها من الخصائص الرئيسة التي لا يمكنها

التنازل عنها؛ لأنها لو قسرت على ذلك بقوة متسلطة - لا قدر الله - لانفجرت منظومتها، ولانتهت لا محالة؟!

كل تلك الحيثيات في أهمية الكتابة، وهذه التساؤلات التي جالت في خاطري؛ نتيجة لتلك التهم التي ما فتئت توجه للكتابة العربية، أثارت كوامن الشجن في نفسي لبحث أسرار كتابتنا وأساليبها في الرسم، وطرائقها في التطور، ووسائل علماء العربية - طيّب الله ثراهم - في إحياء رسومها، وتكميلها حتى وصلت إلينا في قمة كمالها وشموخها.

وكان عليّ تتبع نموها منذ كانت في رحم النقوش الصخرية، مرورًا بأطوارها التاريخية، فتية يدوّن بها القرآن الكريم، ثم ناضجة تزيّنها جهود اللغويين العرب، الذين ما فتئوا يطورونها بأدوات لغوية وفنية أحكمت صنعها، من داخل الكتابة نفسها، فنجحوا في التطوير والبناء، وكانت جهودهم منهجًا لنا مازلنا نسير عليه. وبعد أن اكتملت أدواتها الأدائية، نراها ترفل بعد ذلك في بذخ جمالي شامخ مع إبداعات الفنانين المسلمين من أرباب الخط العربي.

وللوفاء بهذه السيرة العطرة للكتابة العربية، كان البحث في خمسة فصول:

اختص الفصل الأول بدراسة الكتابة العربية في فجر نشأتها في العصر الجاهلي، وما أصابها من استعمال مكثف في العصر الإسلامي إبان تدوين القرآن الكريم، مما أبان عن قدرتها الذاتية الهائلة، وإمكاناتها في الوفاء بأصوات اللغة العربية وبنيتها الصرفية والنحوية، وخصائص رسمها في تلك المرحلة.

أما الفصل الثاني فقد عالج الكتابة في عصر النضج والاكتمال إبان القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، فأبان عن بنيتها، وما أصابها من تطور وتطوير على أيدي علماء اللغة وكتّابها، فقد تمّ في هذه الفترة إحياء نقط الإعجام. كما تمّ رصد الملامح الأولية للخطوط الأولى وما أصابها من تطور تمخض بعد ذلك عن الخط الموزون.

وكان الفصل الثالث مكملاً في فترته الزمنية والدلالية للفصل الثاني، إذ عالج الفترة نفسها، ولكن من منظور الضبط اللغوي، وعني بتتبع إصلاحات اللغويين لها، فرصد ما نالها من وسائل الضبط بتكميلها بنقط

الإعراب. ثم إصلاحات الخليل بن أحمد لهذا النظام. كما أبان عن العوامل المؤثرة في القضايا الإملائية في تلك الفترة؛ لأنها عوامل راسخة بقيت مهيمنة على الإملاء العربي حتى العصر الحاضر.

وبذلك اكتملت البنية الأساسية وقضايا الضبط اللغوي إبان هذه المرحلة. وبدأت منذ القرن الرابع الهجري عصور التجويد لما أصاب الكتابة من تطور في القرون الثلاثة الأولى. فعالجت الدراسة هذه العصور في فصلين تاليين.

ففي الفصل الرابع تمت دراسة ما أصاب البنية الجمالية من تطور هائل؛ نتيجة لاكتمال الملامح الأولى لمدرسة الخط المنسوب، وتقرير قواعدها الأساسية على يد ابن مقلة الذي أقامها على مبدأ النسبة الفاضلة، وبذلك تمت هندسة بنية الحروف العربية عن طريق هذه النظرية، وعلى هذا الأساس وضع الإطار العام للتناسق الخطي بين القلم والحروف في الكلمة الواحدة، وبين الكلمات في الجمل، وبين الأسطر في الرقعة الواحدة. ولبيان الوضع الخطي في هذه المرحلة الطويلة استعرضت الدراسة ما قام به أعلامها في العصر العباسي، ابن البواب، وياقوت المستعصمي، ثم ما نال الخط المغربي والخط الموزون من تطور وثبات. ليفضي هذا الأمر إلى دراسة المدرسة الفارسية والعثمانية التي نال الخط العربي فيها أسمى درجات الإبداع الفني. وهكذا خلصت هذه المرحلة إلى أنواع الخط العربي الستة الباقية (الثلث، النسخ، النستعليق، الديواني، الرقعة، وخط العرب الأول الكوفي).

وكان للنظرة الإسلامية للخط وسائر الفنون الأثر الكبير في ظهور مدرسة الصنعة الفنية التي جعلت الخط العربي أداتها الرئيسة، لكنها طوعت خطوطها الخاصة بها، بحيث تفي برؤاها الجمالية البحتة، وكانت آثار هذا الاتجاه ظاهرة على سائر الفنون الإسلامية التطبيقية.

وفي الباب الخامس تمت معالجة البنية الدلالية للكتابة في عصر التجويد، فحاولت الدراسة رصد بعض التطورات التي أصابت الحروف والرسم الإملائي. كما حاولت تلمس البدايات الأولى لعلامات الترقيم في المخطوطات، وعلامات الوقف في القرآن الكريم.

وبما أن رموز الأعداد هي من مكونات النظم الكتابية، فقد عنيت الدراسة بها فبحثت عن أصلها، وتعريبها ورحلتها إلى أوربا. كما تم رصد سمات الحرف العربي في رحلته مع لغات الشعوب الإسلامية. وما أصابه من تراجع عند تلك الشعوب، نتيجة للهجمة الاستعمارية الشرسة إبان القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

وقد ذيلت الدراسة بجداول من عمل الباحث، ولوحات وصور علمية تتواءم مع أهدافها، واقتصر الاختيار من اللوحات أو الصور على ما كان يحمل دلالة علمية تخدم الدراسة، وتمتّ لها بسبب قوي، واستبعد ما فقد الدلالة العلمية، إما لبعده عن مجالها الدقيق، وإما لعدم وضوحه في الصور التي وصلتنا، ومن ثم فقده شهادته.

وقد رجع الباحث في سبيل تحرير تلك الفصول إلى كتب النقوش، والآثاريين، وصور المخطوطات، وكتب علماء الرسم القرآني والقراءات، ثم إلى كتب علماء النحو والصرف في الهجاء. وكتب الخط والخطاطين؛ لبيان دورهم في تطوير الكتابة والرقي بمستواها الفني. وإلى كثير غيرها من كتب التراث، وكتب المحدثين.

والدراسة بتأريخها للنظام الكتابي العربي في صورتيه الدلالية والجمالية تبين عن أسبقيتها وجدتها في موضوعها، إذ لا توجد في المكتبة العربية دراسة عنيت بالتأريخ للنظام الكتابي العربي، واختصت به بصورة علمية. إذ الموجود ينحصر في:

١ ـ كتب الرسم المصحفي، وهذه تعالج الرسم العثماني للقرآن. ومن ثم فإنها دراسات تقصر أهدافها على أقوال السلف في قضايا الرسم. باستثناء دراسة الدكتور غانم قدوري الحمد المعنونة «رسم المصحف» التي أفادت منها هذه الدراسة كثيراً.

٢ ـ كتب الإملاء وهي معنية بتقرير القواعد الإملائية.

٣ ـ كتب الخط والخطاطين، وهي لا تعدو أن تكون صفحات مصورة للوحات خطية، وسير الخطاطين.

٤ ـ كتب الدراسات الأثرية، وهذه اقتصرت على النواحي الشكلية لبنية الحرف في النقوش والفنون التطبيقية.

إن الباحث ليأمل أن تكون هذه الدراسة وما قدمته من سبر لأساليب علماء العربية في تطوير الكتابة، مهادًا تاريخيًا، وآليات عمل حية لما يمكن أن يصيب النظام الكتابي العربي من تطور وتطوير، ينقلها إلى مدارج الرقي، ولا يخل ببنيتها، أو يخرجها عن سياقها العلمي الذي جاءت فيه، وارتضاه لها علماء العربية على مر العصور.

وبعد، فإن القصور الإنساني كان يشهر سيفه أمامي في كل مرة أنظر في أجزاء الدراسة، فتلك مسألة تحتاج إلى معالجة، وأخرى يلزمها مزيد من البحث، وثالثة تحتاج إلى إعادة نظر، وهكذا. وكدت أتوانى عن تقديم الدراسة إلى النشر، لولا أن مقولة العماد الأصفهاني مثلت أمامي، فعزمت على الإنجاز بما تيسر لي من جهد ووقت، على أمل أن يدخر ما ينتج من القراءات التالية إلى طبعة تالية، إن مكن الله لها بالقبول.

وأخيرًا لا يسعني إلا إزجاء الشكر لكل من أسهم برأي استفدت منه في هذه الدراسة، وأخص بالشكر الصديق، الأستاذ عبدالمحسن بن منصور الخميس، الذي كان لمراجعته كبير الأثر في الإقلال من هنات اللسان وتصحيف الطباعة. والشكر موصول أيضًا لدار الفيصل الثقافية التي رحب المسؤولون فيها بنشر الدراسة، وكان لموافقتهم المبدئية أكبر الأثر في الحث على الإسراع بإنجاز المراجعات الأخيرة.

آمل أن يكون هذا العمل قبسًا من مشاعل النور التي تذود عن حياض أمتنا، وتدافع عن مقومات هويتنا العربية الإسلامية، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ۝١٩ ﴾ (سورة النمل).

المؤلف

الرياض، في العشرين من ذي القعدة سنة ١٤٢١هـ

الفصل الأول

فجر الكتابة العربية

(١)

نشـأة الخـط العـربي

تميـزت اللغـة العـربيـة وكـذلك النظام الكـتابي العـربي ـ وهو مـا عـرف في تاريخنا الثقـافي بالخط العربي ـ بعمق الجذور التاريخيـة، فأقدم مـرويات اللغة يصل إلى خمسمائة سنة قبل البعثة النبـوية، كمـا أن أقدم النقوش التي ظهرت فيهـا الحروف العـربيـة تعود إلى منتصف القـرن الثالث الميـلادي (٢٥٠ ـ ٢٦٠م) حـيث دون به نقش أم الجـمـال الأول[١]. وتاريخ مـثل هذا التـاريخ الموغل في القـدم على مـسـتوى اللغـات الحـيـة وتدوينهـا يجـعل من مـحـاولة الكشف عن أصولها ضربا من التوقعـات وفرض النظريات، لهذا فإن الدارس لتاريخ النظام الكتـابي العـربي يكتـشف أثناء بحـثه أن هنـاك آراء عـديدة حـاولت مـعـرفـة أصل الكتـابة العـربيـة مـسـتعـينـة تارة بالروايات، وتارة أخـرى بـالنقـوش والتنقـيب عن المدونات الأثرية. وقد اتخذت هذه الآراء بسـبب عـرض البـاحثين لها ومناقشتها، ومـا صـاحبها من تمحيص صورة النظريات العلميـة التي تحـاول جـاهدة تفسـير الظاهـرة الكتابية العربية في أصولها ونشأتها وتطورها.

أ) نظريات في الأصل والنشأة

نظرا لعدم وجود تاريخ موثق لأصل الخط العربي، فقد اعتورت نشـأته خمس نظريات تحاول التكهن بأصله ومكان نشأته. وتنضوي هذه النظريات تحت ثلاثة اتجاهات بحثية، أحدهـا يرجع إلى المرويات التي وردت في المؤلفـات العربية، وهـي مـرويات تجنح في كثيـر من جوانبهـا إلى المنزع الأسطوري. وقد اسـتعـانت هذه المرويات أحيانًا بآراء خاصة في تفسـير القرآن الكريم. وأما الاتجاه الثـاني فكان اتجاها يصدر عن الواقع الملموس المعتمد على ما وصل إلى العصر الحديث من

---

(١) د. أسامة ناصر النقشبندي: مبدأ ظهور الحروف العربية وتطورها لغاية القرن الأول الهجري، مجلة المورد، ع٤، م١٥، ص٩٣.

النقـوش، وهو اتجـاه يقـوم على المقـارنة بين أشكال الحـروف، بحـيث يسـتطيع تحديد أواصـر الصـلات وعـلاقات النسب بينهـا. في حين كان الاتجـاه الثـالث اتجـاهـا يحـاول الاسـتفـادة من إمكانات هذين الاتجاهين، فعني بالنقوش، لكنه استفاد من المرويات العربية وحاول توجيه بعضها على ضوء هذه الآراء.

❖ الاتجاه الأول : اتجاه المرويات العربية

وتنضـوي تحت هذا الاتجـاه أغلب النظريات، لكن القـول الذي يسـود هذا الاتجاه يعتمـد على المأثورات العـربيـة في كتب التـاريخ واللغة، وهـي مـأثورات حاولت تفسير النظام الكتابي وأصله الذي اشتق منه عن طريق ذكر مجموعة من الأقـوال والمرويات التي تفتقـد السند، أو تعتمـد في أصلها على آراء خاصـة في تفسـير النصـوص القـرآنيـة. وقد درجت تحت هـذا الاتجـاه ثلاث نظريات: نظرية التوقيف، والنظرية الحيرية الشمالية، والنظرية الحميرية.

١ ـ نظرية التوقيف

ويقصد بالتوقيف في الدراسات العربيـة أن الكتابة وكذلك اللغة قد أنزلها الله على آدم أو غيره من الأنبياء عليهم السـلام. وقد قال بهذا الرأي كثير من اللغويين والرواة العرب، فورد ذلك الرأي عند الصولي، مستدلا برواية عن كعب الأحبـار وابن عبـاس(٢)، وكذلك ابن فـارس (ت ٣٩٥هـ) حين قـال(٣): «يروى أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السـلام، قبل موته بثلاثمئة سنة، كتبها في طين وطبخه. فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه، فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي» ويؤكد هذا الرأي ويستدل عليه بنصوص من القرآن الكريم فيقول: «والذي نقوله فيه: إن الخط توقيف، وذلك لظاهر قوله عز وجل **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾** (سورة العلق: ١ ـ ٥) وقال جل ثناؤه **﴿ن والقلم وما يسطرون﴾** (سورة القلم: ١) وإذا كان

(٢) الصولي: أدب الكتاب، ص٢٨.

(٣) أحمد بن فارس: الصاحبي، تحقيق السيد أحمد صقر، ص١٠.

كذلك فليس ببعيد أن يوقّف آدم عليه السلام أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتاب». وقد لاقت هذه النظرية اعتراضا من بعض علماء العربية وعلى رأسهم بن جني (ت ٣٩٢هـ) تلميذ أبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) الذي قال: «هذا موضع محوج إلى فصل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي ولا توقيف»(٤).

وقد أورد السيوطي (ت ٩١١هـ) في المزهر آراء القائلين بالتوقيف وحججهم وآراء القائلين بالوضع وحججهم، وفيه نتبين أن هذه النظرية كانت قائمة على الاحتجاج العقلي المبني على اجتهادات في تفسير القرآن الكريم، ولم تكن بأي حال تعتمد على دراسة الواقع من النقوش أو مقارنة للكتابات الموجودة في المنطقة. ولعل السبب في لجوء اللغويين وعلماء العربية لهذا الاتجاه افتقادهم بالدرجة الأولى لمعلومات أكيدة عن الكتابات السابقة للخط العربي، كما أنهم لم يعمدوا في محاولتهم تفسير نشأة الخط العربي إلى النقوش الأثرية، ومقارنتها بما حولهم من أنظمة كتابية سابقة، أو موازنتها بكتابات معاصرة من خلال معرفة أوجه الشبه والاختلاف بين الخط العربي والخطوط الأخرى. ولعلهم في أثناء بحثهم عن أصل لهذا الخط الذي يرونه وافيا كاملا بين أيديهم، وجدوا ضالتهم في هذا الرأي الذي يريحهم في تفسير هذه الظاهرة الحضارية التي تتميز بعميق أثرها في حياة الإنسان، خاصة في ظل قصور الأدوات العلمية لدى هؤلاء العلماء التي من أبرزها قلة النماذج الكتابية لديهم، القديمة منها والمعاصرة، بسبب بعدهم عن الدراسات الأثرية المقارنة. ولعلهم يقرون ضمنا في قولهم بالتوقيف الإلهي للكتابة بما يقوله الدارسون في العصر الحديث بأن أعظم كشف إنساني هو اختراع الكتابة. ونظرا لعدم اعتماد هذه النظرية على أي وسيلة علمية مقنعة، يتبين لنا بطلانها، إذ هي لا تقوم على دراسات علمية ثابتة بل تقوم على التخمين والتأويل والروايات الإخبارية.

---

(٤) السيوطي: المزهرفي علوم اللغة وأنواعها، ص١٠.

٢ ـ النظرية الحيرية الشمالية

وهذه من النظريات التي قال بها الإخباريون العرب الذين أخذوا بمقولة الوضع والاصطلاح في اللغة والخط، حيث رأوا أن الخط قد جاء إلى العرب من الحيرة في العراق، أو أنه قد ورد الحيرة من الأنبار، ومن الحيرة انتشر في الحجاز. فقد سئل المهاجرون: من أين تعلمتم الخط فقالوا: من الحيرة، وسئل أهل الحيرة، من أين تعلمتم الخط فقالوا من الأنبار(٥). وتورد المصادر العربية عددا من القصص والأسماء تزعم أن بعضها اخترع الحروف، وبعضها وضع حروف الروادف، أو نقط الإعجام وهي روايات متعددة ومختلفة تبدو عليها الصنعة والاختراع في الأسماء، كما أنها روايات لا تشير إلى تاريخ ظهور هؤلاء الأشخاص. ومن رواية للجوهري، نتبين منها صنعة هذه الروايات وقربها من الخرافة. فقد نقل الجوهري عن شرقي بن القطامي: أن أول من وضعه ـ يعني الخط ـ رجال طيء منهم مرامر بن مرة وأنشد عليه:

تعلمت أباجاد وآل مرامر ❖ ❖ ❖ وسودت أثوابي ولست بكاتب

قال الجوهري: وإنما قال آل مرامر لأنه كان قد سمي كل واحد من أولاده بكلمة من أبي جاد وهم ثمانية. وينقل الصولي رواية عن عمرو بن العاص وعروة بن الزبير أنهما قالا: «أول من وضع الكتاب العربي قوم من الأوائل نزلوا في عدنان بن أد بن أدد، أسماؤهم أبجد وهوز وحطي، ووجدوا حروفاً ليست من أسمائهم وهي الثاء والخاء والذال والظاء. والضاد والطاء والغين فسموا بالروادف». وفي رواية أخرى مفادها «أن أول من كتب العربية مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة اجتمعا حتى وضعا مقطعه وموصله وهما من أهل الأنبار»(٦). ولعل أبرز ما تشير إليه هذه الروايات وتجمع عليه هو دور الحيرة في نقل الخط العربي للحجاز.

٣ ـ النظرية الحميرية

ضمن المأثورات العربية في أصل الخط العربي نجد رأيا له صداه في

(٥) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص١٧٢.
(٦) الصولي: أدب الكتاب، ص٢٩، ٣٠.